

الترابط و الاتساق في قصيدة
"رسالة من المنفى" لمحمود درويش

سليمة بونعيجة
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تجتهد هذه الدراسة في تقديم محاولة جادة في تحليل نص شعري معاصر وفق المقاربة النصية، قصد التعرف على ما يحكمه من قوانين و يحمله من قيم و يتميز به من ثراء، وذلك بالاعتماد على النتائج التي توصلت إليها اللسانيات النصية، وما زوت به هذه الأخيرة دارسي الأدب و نقاده من تقنيات لإقذارهم على حسن فهم النص الأدبي و الإحاطة بمختلف جوانبه ما أمكن.

أولاً: المقدمة:

يعنى نحو النص بتحليل النص داخل التفاعل الاجتماعي التواصلى مراعي ظروف الكاتب و المتلقي معا، و يندرج الترابط. يندرج الترابط - cohésion - والاتساق-cohérence-ضمن الموضوعات الهامة لنحو النص فحظيا بالعناية الفائقة من قبل ثلة من العلماء، على نحو هاليدي ورقية حسن وفان دايك ودي بوجراند وغيرهم (1) وهما معياران من ضمن جملة المعايير التي قدمها فولفانج دريسلر و دي بوجراند، يؤخذ بها في الحكم على النص بالنصية. سنحاول من خلال مساهمتنا المتواضعة التعرف على المظاهر المختلفة للسبك و الحيك في

Résumé :

Cette contribution présente une étude analytique d'un texte poétique moderne suivant l'approche textuelle. Le but de ce travail est de découvrir le texte à travers ses codes, ses valeurs, sa richesse, et de montrer les efforts de la linguistique textuelle pour mieux comprendre et cerner le texte littéraire.

قصيدة رسالة من المنفى لصاحبها الشاعر محمود درويش.

أما القصيدة فتتكون من خمسة مقاطع متفاوتة من حيث الطول، يصور لنا الشاعر من خلالها تجربته الشخصية في أرض المنفى، معبرا عن مأساة الإبعاد و الاغتراب وما يتصل بها من أحداث متزاخمة، يقف الأديب مشتتا بين تفاصيلها، فكل شئ فيها هام لما أوجده في نفسية الشاعر من أخاديد الحزن العميق والألم الدفين. فالغربة واقع و هاجس يطارده بمكانه و زمانه، وكل ما يحيط به يشعره بالتيه و الضياع وللانتماء، وتبلغ المعاناة ذروتها عندما يغور بنا في أعماق تجربته الرؤيوية، أين يقطع الأمل في النجاة، فشقاؤه ممتد في الزمن ولا يرقب له آخر، وفي هذا صورة حية عن حالة اليأس المتفاقمة لديه و القنوط الذي يجتر مرارته دونما توقف.

ثانيا :وسائل الترابط ومظاهر الاتساق في القصيدة:

لقد تعددت وسائل الترابط النصي في نحو النص، وعلى تنوعها و اختلاف أشكالها فقد لاقى اهتماما كبيرا من قبل المختصين، و سنقتصر في دراستنا هذه على دراسة مظهرين هما: التكرار والتضام.

أولا: التكرار أو إعادة اللفظ: *Récurrence*

وهو شكل من أشكال التماسك المعجمي الذي يقضي بإعادة عنصر معجمي و يأتي على ضربين شتى «و سنحاول الوقوف على بعض منها مما توفر في هذه القصيدة.

أ-التكرار المحض:

و هو إعادة توظيف عنصر معجمي مع وحدة المرجع أو اختلافه، ولقد تواترت هذه الصورة من الترابط بشكل لافت للانتباه: و منه:

1-تكرار استعمال المادة الثلاثية"قول"

و لقد جاءت بصيغ حرفية مختلفة: الماضي و المضارع و الأمر و المبني للمجهول (أقول، قيل، يقال، قل، يقول، قال). وكانت الصيغة المتربعة على عرش القصيدة هي صيغة المضارع مع المتكلم المفرد، وهو استخدام مشوق و مقنع يدفعنا حثيثا للكشف عما تتطوي عليه الذات الشاعرة وهي تمر بتجربة المنفى، الأمر الذي يتناسب مع الموضوع الذي طرقة المرسل في نقل أخبار ذاتية عبر الأثير إلى ذويه هناك في أرض الزيتون. فنجدته يقف حيران متأسفا حول ما سيقول -في أول مقطع- ، هل يقول كل

شيء؟ ولكن ليس في الوقت متسع لذكر كل ذلك ، فعلى أي أمر سيقف، وعند أي حدث سيحط؟ ويتضح ذلك في قوله:

تحية.....و قبلة

وليس عندي ما أقول بعد

من أين أبدي؟ ..و أين أنتهي؟

ودورة الزمان دون حد (2)

لقد اجتهد الشاعر من خلال تصريحاته و أقواله امتلاك واقعه و إعادة خلق كينونته ضمن قوالب فنية مثيرة صادرة عن الآثار السلبية المترسبة في أعماق الأنا المعذب، و ذلك بتحويل عالم المنفى إلى كلمات موحية متميزة بالتناقضية، فالأسماء تشير إلى مسمياتها دونما رمز أو غموض.

لقد جاء هذا كمقدمة للخطاب الذي سيد لي به ، انه لم يقل شيئاً بعد، و لكنه منحنا ومضة برق سريعة عن حياة الموت التي يعيشها و حالة الإحباط التي تعتريه:

و كل ما في غربتي

زودة، فيها رغيف يابس، ووجد

و دفتر، يحمل عني بعض ما حملت

بصقت في صفحاته ما ضاق بي من حقد (3)

لقد كانت مادة " القول " الخيط الرابط بين فقرات هذه القصيدة الشعرية. فكلما انتقل إلى سرد خبر جديد إلا و وظف الفعل المضارع "أقول" أو صيغة الأمر "قل" أو صيغة الغائب المفرد "قال" مما ساعد على ربط أول النص بآخره معجميا و كذا اتساقه دلاليا.

2 - توظيف الأدوات:

لقد أبدع الشاعر في توظيف الأدوات المختلفة بحيث أخضعها لخدمة الدلالات الخاصة بكل مقطع شعري و الأبعاد الكلية للنص عموما ، و رغم تعدد هذه الأدوات و تباينها فلقد تكررت في متن هذا العمل الإبداعي كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وهي : [لا "النفي" ،ما، أين ، كيف، هل الاستفهامية ،لعل] (4)، ففي المقطع الأول يوظف "لا"

النفي - لمجرد النفي- و "أين" التي تفيد الظرفية المكانية بمعدل أربع مرات. قد أفاد هذا في توضيح الرؤية المستقبلية لدى الشاعر، و هي استحالة تغيير ما هو كائن. ما يزيد في تكريس هذه الدلالة هو نسبة تواتر أداة الاستفهام في مطلع المقطع و نهايته، و ما يحدثه من تجاوب مع النص، ويصاحبه شعور بالبؤس و كذا التهوي لما هو قادم من أخبار:
من أين ابتدي؟

وكل ما قيل وما يقال بعد غد

لا ينتهي بضمة.... أو لمسة من يد

لا يرجع الغريب للديار

ا ينزل الأمطار

لا ينبت الريش على

جناح طير ضائع....منهد

من أين أبتدي؟ (5)

يعاود الشاعر الكرة مجدداً في المقطع الرابع-للتعامل مع أداة استفهامية أخرى "كيف" لكي يستفهم بها استفهاماً حقيقياً عن أحوال العائلة و الرفاق و القرية، انه متلهف لمعرفة الجديد في حياتهم. فلقد عمل على توزيعها توزيعاً فيه الكثير من خصائص الربط اللفظي و الحبك المعنوي في هذا المقطع الطويل نسبياً، الذي ينقسم إلى خمسة محاور استفسارية. فهو يسأل عن حال الوالد و الإخوة و الأخت و الجدة و البيت الذي ضمه و هو طفل صغير. فما أن ينهي محورا حتى يدخل في محور آخر مستفتحاً إياه بأداة الاستفهام "كيف". في نجد في هذا تعزيزاً للعلاقات الدلالية الجزئية و المحورية، التي سيفضي بنا إليها وهي أنه رغم المسافات البعيدة فانه يعيش مفارقة التقارب النفسي الشديد من الوطن، تتداعى فيها ذكريات بعيدة عالقة بأسرته و البيت الذي أوامهم. انه إنسان يعيش إنسانيته بنقاط ضعفها و قوتها، وفي ذلك يقول:

فكيف حال والدي؟

ألم يزل كعهده، يحب ذكر الله

و الأبناء.. و التراب.. و الزيتون ؟

و كيف حال إخوتي

هل أصبحوا موظفين؟

سمعت يوما والدي يقول:

سيصبحون كلهم معلمين..

سمعته يقول:

(أجوع حتى اشتري لهم كتاب)

إلى أن يقول:

وكيف حال بيتنا

و العتبة الملساء..و الوجاق..و الأبواب؟ (6)

يطالعا الشاعر-في المقطع الأخير- باستخدام أداة استفهام أخرى "هل". يسعى من ورائها إلى تعرية واقعه بما يجعل الحقيقة المرة تتجلى بأشبع صورها تعمل على تشكيل الوعي عن طريق الفهم و الشعور و ما يثير كل ذلك من أحاسيس إنسانية و ذوقية جمالية في ذات المتلقي. انه يستجدي عطف أمه و الموجودات غير العاقلة من حوله عليها تحنو عليه و ترفق به، يتبين ذلك في قوله:

هل تعلمين ما الذي يملأني بكاء؟

هبي مرضت ليلة..وهذ جسمي الداء

هل يذكر المساء

مهاجرا أتى هنا. ولم يعد إلى الوطن

هل يذكر المساء

مهاجرا مات بلا كفن؟

يا غاية الصفصاف: هل ستذكرين

أن الذي رموه تحت ظلك الحزين

-كأي شيء ميت-إنسان؟

هل تذكرين أنني إنسان؟ (7)

تبدو هنا عبقرية هذا الشاعر في إحكام عملية التواصل مع الآخرين من العقلاء و غيرهم و ذلك من خلال هذا البناء اللفظي المترابط المتماسك الأجزاء. هذا ما تصنعه

بنا لغة الشاعر محمود درويش، و بخاصة و أن الوظيفة التعبيرية هي الغالبة على إبداعاته الشعرية، فهو يستهويننا بهذه الخصوصية الشعرية لتتبع نمو الوعي الذاتي عنده بقضية شعبه و آلاف المبعدين مثله.

ب - تكرار لفظ الجملة:

نعني به تكرار استعمال جملة بعينها مع الحفاظ عليها بمعجمها و طريقة صياغتها،⁽⁸⁾ وهذا النوع من التكرار يؤدي وظيفتين: الأولى تكون خاتمة لكلام سابق، والثانية بداية لمضمون المعنى القادم، مما يساعد في تكثيف دلالة النص.

لقد سلك صاحب هذا النص هذا المسلك، فذهب إلى أبعد من ذلك، فلا يخلو أي مقطع من المقاطع الخمسة من تكرار لفظ الجملة من مثل (من أين أبتدي؟ مق/1)، و (أنا بخير مق/1)، و (بخير مق/2,3,4)، و (صرت كالشباب يا أماء مق/2,3)، و (هل يذكر المساء مق/5)، و (ما قيمة الإنسان مق/5).

لننظر الآن في جملة (أنا بخير) التي على تواترها و تكرارها لم تشعرنا بالرتابة في النص، لأنها في كل مرة كانت حاملة لمعنى جديد، ففي بداية المقطع الثاني دلت على الوجود، ثم الصحة الجيدة، فحسن التكيف مع الواقع، إلا أنها في بداية المقطع الثالث إلى النمو و بلوغ مبلغ الرجال، وفي آخر المقطع نقلت إلينا دلالة سد رمق الجوع.

(أنا بخير) جملة اسمية دالة على الثبوت، ارتسمت من خلالها القضية التي نطرحها 'القسييدة و المتجسدة في إشكالية الوجود. فهل الوجود يعني تلبية الحاجات البيولوجية للمحافظة على البقاء، أم أنه يحمل بين جنباته مفاهيم و أبعاد أخرى؟

إن الشاعر يعلن لفظاً بأنه بخير و في المقابل يصرح فيقول (لكني حزين) فهو إذا ليس على ما يرام، وعليه فإن في هذه الجملة (أنا بخير) زيفاً و مغالطة كبرى فما تواترها إلا دليل على أن في الأمر ريبة، ونجد لهذا الزعم الباطل تبديداً عند نهاية المقطع الرابع و بداية المقطع الخامس و آخره. بدا ذلك جلياً عند تكراره للفظ الجملة الاستفهامية (ما قيمة الإنسان؟) فلقد تعدت هذه الجملة الإطار الذاتي المتعلق بالحياة الشخصية للأديب، لتلتحم بالتجربة الشاملة للإنسان في تقلبات حياته و معاناته الوجودية و الاجتماعية، مثل ذلك قوله:

أماه يا أماه

لمن كتبت هذه الأوراق

أي بريد ذاهب يحملها

سدت طريق البر والبحار والآفاق....

و أنت يا أماه

و والدي، وإخوتي، والأهل، والرفاق..

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلي بلا عنوان

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

و دونما عنوان

ما قيمة الإنسان؟⁽⁹⁾

لا يخفى عنا ما في ذلك كله من ربط لأجزاء النص المتعددة، فلاحت كلحمة واحدة تشكلت من دلالات جزئية متألّفة و متناقضة تدفقت من لديها الدلالة النواة لهذا النص وهي : امتهان كرامة الإنسان و تجريده من إنسانيته بفعل سياسة التهجير.

ج - التكرار الجراماتيكي أو التركيبي:

هو تكرار لنظم الجمل بكيفية واحدة، أي تكرار النمط أو المنوال الذي بنيت عليه الجملة مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تتألف منها الجمل.⁽¹⁰⁾ وهذا الشكل من الترابط يحفز المتلقي و يزيده تأملا و شعورا بالترابط النصي. ونسجل حضوره المتواتر في هذا الإبداع الفني و بخاصة في المقطعين الأول و الثاني، ("لا ينتهي"، "لا يرجع الغريب"، "لا ينزل الأمطار"، "لا ينبت الريش"⁽¹¹⁾.. الخ) نجد فيه حث على مواصلة التلقي، إضافة إلى ضبط الدلالة المقصودة وهي انقطاع الرجاء في العودة.

نلقي مثل ذلك أيضا - في المقطع الثاني - عندما يصف الشاعر يومياته في المنفى بعفوية لافتة، إذ يغمرنا بحشد من الجمل الفعلية المتضمنة لصيغة الحاضر المعبرة

عن الحركة و السعي و النشاط و كذا الإقبال على الحياة. إنه -أي الشاعر- شاب تجاوز العشرين و كغيره من الشباب يحيا طبيعة هذه المرحلة بكل أبعادها. و هذا من شأنه أن يخدم سياق الموقف الشعري، و يجعل المتلقي أكثر تمثلا للمعاني الواردة فيه، يمثل ذلك قوله: ("أواجه الحياة" ، " واحمل العبء" و "اغسل الصحن" ، و "اصنع القهوة" و الصق البسمات، أذخن التبغ) (12)

ثانيا - التضام: collocation

هو وسيلة من وسائل الاتساق و التماسك النصي المعجمي تحكمه علاقات متعددة، هي علاقة الجزء بالكل و الثنائية الضدية. (13)

تتجلى هاتان الخاصيتان في القصيدة عندما يترجم لنا الشاعر حياته بين دورتين متعاقبتين، لكنهما متعاكستان أو متناقضتان، الأولى متصلة بحلم الطفولة بكل جوانبه المكان و الزمان و الأشخاص، أحاديث الأب المحب لذكر الله و الأبناء و التراب و الزيتون، و الجدة القابعة عند الباب تدعو بالثواب و الخير و الإخوة و الأخت و المنزل و تمتاز هذه العلاقة -في الدورة الأولى- بالالتحام بين الذات و الجماعة.

في مقابل الدورة الثانية من حياته وهي الحاضرة المخالفة تماما للعناصر الأولى. فالمكان هو المنفى الممثل بغاية الصفصاف و أما الزمان فهو ليل جائع سفاح بهوموم و أحزانه.

وأما الشخص ففهم الأشباح و الغربان و سائر الأشياء غير العاقلة، فهو بهذا يزودنا بصور بشعة و مفزعة عن الغربة، وعليه فإن ما يميز العلاقة بين الشاعر كجزء و المنفى ككل هو التنافر و عدم التآلف و الانسجام. هذا مما جعل هذا النص يتميز بالثنائية الضدية التي جمعت بين المتضادات الآتية:

حياة المنفى / حياة الوطن

مرحلة الشباب / مرحلة الطفولة

دورة الموت في الغربة / دورة الحياة في القرية

لقد أعان هذا الضرب من الاتساق على إبراز دلالات النص الفرعية و الدلالة العامة بالاعتماد على الثنائيات الضدية المرتبطة بالموت و الحياة، المصورة لصراع الذات المتأرجحة بين عالمين متناقضين، عالم الحياة في مقابل عالم آخر يعيش بالموازاة

مع العالم الأول، يغمره الشعور بالموت البطئ يتسرب إلى أوصاله وروحه الشاعرة و هو لأزال في عمر الزهور.

ثالثاً: الخاتمة

تتجلى صور الترابط و الاتساق في قصيدة "رسالة من المنفى" لمحمود درويش طلاقاً من النقاط الآتية:

أولاً: تظهر صور الترابط-cohésion- في القصيدة من خلال توظيف الصيغ الصرفية المختلفة لمادة(ق و ل) في أغلب المقاطع. وهو الأمر الذي أسهم في نقل صورة حية عن الواقع الذي يعيشه الشاعر في ديار الغربة. كما جاءت أدوات الاستفهام الموزعة بين ثنايا القصيدة مدعمة للعلاقات الدلالية الجزئية و المحورية لهذا النص الشعري، فخلق ترابطاً جعل منه لحمه واحدة متماسكة.

ثانياً: لقد ساعد تكرار لفظ الجملة أي التكرار التركيبي في النص على التكثيف الدلالي بإسقاط المعاني الجديدة التي خدمت الدلالة النواة في هذا العمل الشعري.

ثالثاً: برزت الثنائية الضدية (الموت / الحياة) كمظهر من مظاهر الاتساق و الانسجام-cohérence- في النص، فغذت المعاني الأفقية و بلورت الدلالة الرئيسة (و هي صراع الذات بين عالمين متناقضين).

قائمة المصادر و المراجع

[1]-انظر:

احمد عفيفي،نحو النص،ط1 مكتبة زهراء الشرق،القاهرة 2001.

سعيد حسن بحيري-علم لغة النص، المفاهيم و لاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان، القاهرة، ط1 1987.

جوليا كريستينا، علم النص،ترجمة/فريد الزاهي، ط2،دار توبقال للنشر، الدر البيضاء المغرب.

فان دايك، النص و السياق، ترجمة/عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق،المغرب،2000.

صبحي ابراهيم الفقي،علم اللغة،النص بين النظرية و التطبيق،ج1،دار قباء القاهرة 2000.

[2] -محمود درويش، ديوان أوراق الزيتون،قصيدة رسالة من المنفى، ص48، دار العودة، بيروت/ط6، 1987.

[3] -محمود درويش،نفسه،ص49

[4]-راجع القصيدة.

[5] -محمود درويش، نفسه ص 49

[6] -محمود درويش، نفسه ص 54،55،56.

[7] -محمود درويش، نفسه ص 58،59.

[8] - انظر: أحمد عفيفي،نحو النص.

[9]-محمود درويش، نفسه ص59،60.

[10]-انظر: أحمد عفيفي،نحو النص

[11]-محمود درويش، نفسه ص49

[12]- محمود درويش، نفسه ص51،52.

[13]-انظر، قاندايك،النص و السياق.